سعدٌ الزرزور

تأليف: أمل طوقان

رسوم: حمد الغائب

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: د.ع. ٢٠٠٥/٤٤٥٣م

سعدٌ الزرزور

تأليف: أمل طوقان

رسوم: حمد الغائب

المؤسسة العامة للشباب والرياضة
رؤية جديدة .. لجيل جديد ..

القصة الفائزة بالمركز الثاني في

مسابقة كتابة قصص الأطفال الأولى ٢٠٠٥م

التي نظمتها إدارة الطفولة وأنشطة الفتيات

بـ «المؤسسة العامة للشباب والرياضة»

بالتعاون مع

صحيفة الوسط

بمملكة البحرين

كانَ سعدٌ ذو الأعوام الثمانية يعشقُ الأحلامَ، فتارةً يحلُمُ بأنه يطيرُ كالزرزور، وتارةً يحلمُ بأنه يسبحُ كسمكةٍ صغيرةٍ، وكلّ يومٍ هو في حلمٍ جديد.

وفي ليلة من الليالي، أكملَ سعدٌ عشاءَهُ وألقى تحية المساء على أبوَيْه ثم ذهبَ لينامَ. وضعَ سعدٌ جنبَهُ الأيمنَ على الفراشِ وتلا سورةَ الإخلاص وبعضَ سُوَرٍ قصيرةٍ من القرآن الكريم يحفظُها، حتى غالبَه النّعاسُ فنامَ. وسرعانَ ما رأى نفسَهُ وقد أصبحَ زرزوراً صغيراً على عشٍّ فوقَ إحدى الأشجار. تلفّتَ حَولهُ فأدهَشهُ جمالُ الدّنيا من فوق الأشجارِ، وطارَ ينتَقلُ من شجرةٍ إلى أخرى غيرَ مصدّقٍ بأنهُ قادرٌ على الطيران.

تعبَ سعدٌ الزرزورُ من الطيران، فوقفَ على أحد الأغصان وبدأ بالغناء وتجربة كُلِّ الأصوات التي يسمعُها، فسَرَّهُ أنهُ يجيدُ الغناءَ بأكثر من صوتٍ، فهو يغنّي بأصواتِ كلِّ ما يحيطُ بهِ من طيورٍ وحيواناتٍ.

وفجأةً سمعَ صوتَ الرعدِ... بُم بُم... فنظرَ إلى أعلى فوجدَ الغيومَ تتلبّدُ في السماءِ، فقلّدَهُ قائلا: بُم بُم، ثم بدأ المطرُ بالتساقُطِ، فهرَبَ ليحتميَ تحتَ أوراقِ الأشجارِ.

كانَ سعدٌ الزرزورُ في قمّةِ السعادة، فهو يستطيعُ الآنَ أنْ يطيرَ بحريّة دونَ مراقبةٍ أو تحكُّمٍ منْ أحدٍ. الآنَ لنْ يذهبَ إلى المدرسةِ، فأخذ يُغنّي ويردّدُ: لا مدرسة لا مدرسة... ما أجملَ الدّنيا بلا مدرسةٍ.

توَقّفَ المطرُ وبدأت الشمسُ تظهرُ من خلفِ الغيوم، فضحكَ سعدٌ الزرزورُ من قلبهِ ضحكةً كبيرةً وقال: ما أجْمَلكِ أيتُها الشمسُ، إنكِ تمنحينَني الدفءَ والضوءَ وتُشعرينني بجمالِ الحياةِ.

***

انطلقَ سعدٌ الزرزورُ في رحلتهِ المدهشةِ يطيرُ ويطيرُ منْ مكانٍ إلى آخرَ مستكشفاً الكونَ من حولهِ، فشعرَ بالجوعِ، إنهُ يريدُ أنْ يأكلَ. تساءلَ في نفسه: ماذا آكلُ؟ تذكّرَ طعامَ أمّهِ فصاحَ بصوتٍ عالٍ: كمْ أفتقدُ الدجاجَ الشّهيَّ الذي تشويهِ أمّي!! وما أنْ أكملَ كلامَهُ حتى سمعَ ضحْكةً عاليةً من طيرِ النّحامِ الواقفِ أمامَ البحيرةِ... هاها... هاها.

قال النَحّامُ: إنهَا أولَ مرةٍ اسمعُ فيها بأنَّ الزرزورَ يأكلُ دجاجاً مشوياً!! هاها... فغضبَ سعدٌ الزرزورُ وقالَ لهُ: كُنتُ أظنُّ أنَّ الزّرافةَ وَحدَها تمتلكُ عُنقاً طويلاً حتى رأيتُكَ الآنَ... هاها... هاها.

لمْ يغضبْ النَحّامُ لأنَّ هذه هي الصورة التي خلقَهُ اللّه عليها، وهوَ مُعجَبٌ بشكله ويحْمدُ اللّه تعالى دائماً عليْها، لذلكَ لمْ يَرُد على سعد الزرزور، الذي أخَذ يُفكرُ في كلام النحام قائلاً في نفسه: صحيحٌ كلامُ النحام، فالزرزورُ لا يَأكلُ إلا الحشراتِ والثمارَ... حشَرات... إخ... كيفَ سآكلُهَا... حسناً سأبحثُ عن ثمارٍ فهي ألذّ وأشْهى، ولكِنْ لا بُدَّ أنْ أعتذرَ منَ النحامِ لأنّه كان على حقٍّ.

قال سعدٌ الزرزورُ: أنا آسفٌ أيها النَحامُ على ما قلتُهُ لكَ، إنّكَ بحق طيرٌ جميلٌ ورشيقٌ.

***

وجد سعدٌ الزرزورُ حديقةً جميلةً فيها أشجَارُ التفاح الأحمرَ، فأسْرَعَ إليها وأكلَ من إحْداها قطعةً صغيرةً لأنّه لا يُحبُّ التفاحَ ولا الفواكهَ. وَجَدَ سعدٌ الزرزورُ طعْمَها لذيذاً، لمْ يكنْ يعرفُ أنَّ التفاحَ شَهيٌّ ولذيذٌ إلى هذه الدّرَجَة. وهنا تذكّرَ كم كانتْ أمّهُ تحاولُ إقناعَهُ بتذوّقِ التفاح، لكنّهُ كانَ عنيداً لا يسْمَعُ كلامَ أحد. شعرَ بالندم على الأيام التي مرّتْ ولَمْ يأكلْ فيها التفاحَ والفواكهَ، وقالَ في نفسه: كمْ كنتُ مخطئاً في كرْهي للتفاح المفيد وتفضيلي عليه (ساندويش البرغر) الكبير، ممّا جعلني

أبدو كالفيل مقارنةً بعمري الصَّغير. سآكلُ التفاحَ والفواكهَ منَ الآنَ وصاعداً، وأخَذَ يأكلُ منَ التفاح حتى امتلأ بطنُهُ.

بعدَ أن شبع سعدٌ الزرزورُ أخَذ عقلُهُ يفكّرُ، ماذا سيفعلُ الآن؟ فهوَ في نهاية الأمر سعدٌ الطفلُ وليسَ زرزوراً حقيقياً. لو كانَ في البيت لأرشدَهُ والداهُ، ولو كانَ في المدرسة لنصحَهُ أساتذتُهُ. لا أحبُّ النصيحَةَ منَ الجميع... كان سعدٌ الزرزورُ يُحَدثُ نَفسَهُ، ثم تابعَ قائلاً: النَصائحُ أوامرٌ لا تنتهي، نَم باكراً، أكمِلْ واجباتِكَ المنزليَّةَ،
لا ألعابَ كمبيوترْ إلا في يوم العطلةِ... و...
و... لماذا لايتركونني على

راحتي، أتَمتّعُ بحُرِّيَّتي؟! ولم يَكدْ يكملُ قولَ حُرِّيَّتي حتى صَرخَ قائلاً: مهلاً، أنا الآنَ أتمتّعُ فعلاً بحُرِّيَّتي وأستطيعُ التصَرفَ كما يَحلو لي... يا سلام ما أحْلى الحُريةَ.. غنَّى سعدٌ الزرزورُ من شدَّةِ الفرح.

***

ظلَّ سعدٌ الزرزورُ يلعبُ ويطيرُ فترةً منَ الزمن ثمَّ سَألَ نفسَهُ: يا ترى كم الساعة الآنَ؟ وأرادَ رَفعَ يده ليرى الساعة!! لكنهُ ضَحكَ مُحدّثاً الأشْجارَ: هل سَمِعتُمْ عن زرزورٍ يحْمِلُ ساعة ؟! كيفَ سأعرفُ الوقتَ الآن؟

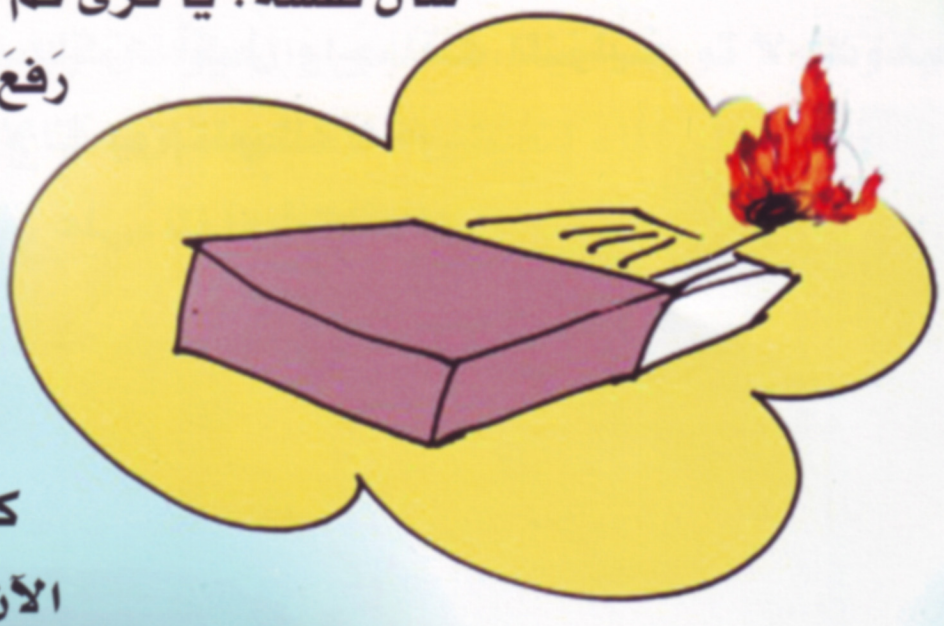

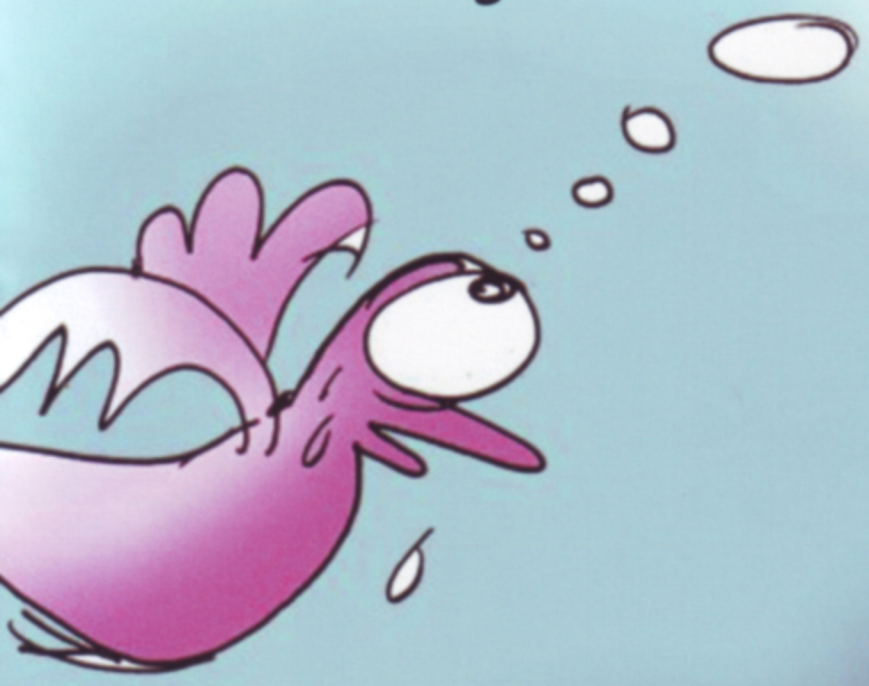

تذكّرَ سعدٌ الزرزورُ شيئاً، نظرَ إلى السماء فرأى الشمسَ في وسَطها فعرفَ أنَّ الوقتَ ظُهراً... لقد عَلّمَتْنا المُعلمةُ في المدرسة كيفيةَ معْرفة الوقت من موقع الشمس في السماء. حَرَّكَ سعدٌ الزرزورُ رأسَهُ قائلاً: على الأقل لقدْ أفادتني المدرسة في شيء.

مازالَ النهارُ طويلاً.. تمتمَ سعدٌ الزرزورُ وَطارَ عالياً بينَ الأشْجارِ الكثيفة. لاحظَ سعدٌ الزرزورُ أنَّ الجوَّ لطيفٌ عكْسَ جوِّ المَدينة الخانق، تذكّرَ الزحامَ والسيَّاراتِ والضوْضاء... فقرّرَ أنْ يَسألَ الأشْجارَ علَّها تُجيبُ عنْ سرِّ الطقس الجميل.

سَألَ الأشجارَ، لكنّهُ لمْ يَسمَعْ رَدّاً منها، وفجْأةً تحرَّكتْ أغصانُ الأشْجارِ مَعاً مُحدثةً نسْمةً عَليلةً منَ الهواءِ النَّقيِّ المنعش. فكّرَ سعدٌ الزرزورُ قليلاً فعَرَفَ أنَّ الأشْجارَ أجابَتْهُ دُونَ أنْ تتكلّمَ، فوُجودُها هوَ الذي يلطِّفُ الجوَّ ويُنَقّي الهَوَاءَ... شكرَ سعدٌ الزرزورُ ربَّهُ على نِعْمَةِ العقل التي

لولاها لما استنتجَ ذلكَ، وأرادَ عقلُهُ أنْ يُذكّرَهُ بأنَّهُ تعلّمَ ذلك أيْضاً في المدرسةِ، ولكن لأنَّ سعداً الزرزور لا يُحبُّ المدرسةَ قامَ بإسْكاتِ عقلِه !!

***

مرَّت نَحْلةٌ منْ أمَامَ سعد الزرزور فَطارَ يلحَقُ بها ليُمْضيَ وَقتَهُ وَيتسَلّى، فرَآها تتجهُ نَحوَ زَهرَة جَميلة حَمراءَ اللون، وَقَفَتْ فوقَها وَشربتْ منها، تعَجَّبَ سعدٌ الزرزورُ منْ ذلكَ، وَانتظرَ حتى طارَت النَحلةُ فذهَبَ هُو أيضاً إلى الزَّهرةِ، مُحاولاً الشُّرْبَ منهَا، حَاول وحَاول، لكنَّهُ لمْ يَستطِعْ.

قالَ سعدٌ الزرزورُ في نفسه: لماذا لا أسْتطيعُ الشُّربَ مثل النَحلة... شَيءٌ غَريبٌ!! في تلكَ اللحْظَة تذكَّرَ سعدٌ الزرزورُ صَديقَهُ حَسَن، تذكَّرَ كيفَ كان رَساماً ماهراً يَرْسُمُ الحيوانات بدقّة لا يُجيدُها مُعْظمُ الأوْلاد في الصفِّ، وفي الوقت نفسه كانَ ضَعيفاً في القراءَة وَيتعَلّمُهَا بصُعوبَة أكثرَ منْ زُملائه الآخَرين. لا يَدري سعدٌ الزرزورُ لماذا تذكّرَ هَذا الأمرَ.

حَزنَ سعدٌ الزرزورُ لأنَّهُ لمْ يَستطِعْ تقليدَ النَحلة، وَأخَذ يتسَاءلُ: هَل النَحلةُ أمْهَر مني؟ ثمَّ جَلسَ يُفكّرُ وَهوَ حَزينٌ جِداً.

مَرَّتْ النَّحْلةُ نفسُهَا من أمَام سَعدِ الزرزور فوَجدتْهُ يَبْكي. حَزِنَتْ وسَألَتْهُ: لماذا تبكي يا صَديقي الزرزور؟

أجَابَها: أبكي لأنيِّ لَمْ أسْتطِعْ الشرْبَ منَ الزهرةِ مثلك.

ضَحكتْ النَّحلةُ وَسَألَتْهُ: هلْ تعْرِفُ لماذا أشرَبُ من الزَّهْرَةِ؟

لَمْ يَرُد سَعدٌ الزرزور.

قالت النحلةُ: أنا يا زرزور، قدْ أعْطاني اللهُ مَوهبَةَ صُنْعِ العسَلِ وَحتى أصْنَعهُ لابُدَّ من أنْ أمْتصَّ رَحيقَ الزهورِ، ولا تسْتطيعُ كلُّ الحَشراتِ أو الطيورِ فعلَ الشيءِ نفسه.

رفعَ سَعدٌ الزرزورُ رأسَهُ وَنظرَ إلى النَّحلة ثمَّ قال: إذاً أنتِ أحسَن منّي لأنكِ تصنعينَ العَسَلَ. وَحزنَ سَعدٌ الزرزورُ أكثرَ وَأكثر.

سَكتتْ النحْلةُ بُرْهةً ثمَّ قالتْ: أتدْري يا زرزور أنَّكَ تمْتلكُ مَوهبَةَ تقليدِ الأصْواتِ وَلا أملكُهَا أنا، كذلكَ أنتَ تأكلُ الحَشراتِ الضَّارةَ بالنَباتاتِ. لكلٍّ منّا يا زرزور دَوْرَهُ في الحَياة، وكلٌّ منّا يسْتطيعُ أنْ يكونَ ذا فائدةٍ إنْ استثمَرَ مَا وَهبَهُ اللهُ تعالى لهُ. وطارتْ النَّحلةُ إلى زَهرَةٍ أخرَى.

فكّرَ سَعدٌ الزرزورُ في قَوْلِ النَحلة وَعرَفَ عندَها لماذا خَطرَ ببَالِه في ذلكَ الوقتِ صَديقُهُ حَسن، إنَّهُ عَقلُهُ مَرة أخْرى الذي يَرْبطُ الأمورَ ببعْضها البعْض. لقد أدركَ أنَّ لكلٍّ دورُهُ في الحياة وَلابدَّ من أن يُتقنَ عَمَلَهُ قدْرَ المُستطاع، ولأول مَرة يشْعُرُ سَعدٌ الزرزورُ بأهميَّة عَقله الذي مَيَّزهُ اللهُ به. شكرَ سَعدٌ الزرزورُ رَبَّهُ في نفسِه قائلاً: أشكُرُكَ رَبِّي على فضْلك وَنعَمك.

بَدَأ سَعدٌ الزرزورُ يشْعُرُ بالوحْدة، إنَّهُ مُشتاقٌ إلى أمِّه وأبيه وإخوته، يتمنّى أنْ يَعودَ إليهمْ، وَلكنهُ في الوَقتِ نفسِه مُستمتِعٌ بحُرِّيتِه، فطارَ مُجدّداً ليسْتكشِفَ الأشياءَ من حَولِه.

رَأى سَعدٌ الزرزورُ فتحَةً في جذعِ شَجَرة، نَظرَ فيها ولدَهْشته وَجدَ عُشَّ طائرٍ، إنهُ يَعرفُ أنَّ الطيورَ تبني أعْشاشَها بينَ الأغصانِ وَليسَ داخلَ الجُذوع. وَبينمَا هُوَ يتأمَّلُ العُشَّ سَمعَ صوتَ نَقْرٍ... طقْ طقْ طقْ... التَفَتَ سَعدٌ الزرزورُ فرَأى طيْراً مُلوناً ذا مِنقارٍ كبيرٍ يَنقرُ جذعَ شَجَرةٍ.

سَألَهُ سَعدٌ الزرزورُ: ما اسمُكَ؟

أجَابَهُ الطائر: أنا نقَّارُ الخشبِ، ألا تعْرِفُني؟!

قالَ سَعدٌ الزرزورُ: ولماذا تنقرُ جذوعَ الأشجارِ؟

قالَ نقّارُ الخشبِ: ذلكَ يساعدني في اصْطيادِ الحَشراتِ وَبناءِ عُشّي في الوقتِ نفسِه.

طارَ سَعدٌ الزرزورُ تاركاً نقارَ الخشبِ يُكملُ عَمَلَهُ، وَتساءلَ في نفسه: إذا كانت النَّحلةُ تقضي وَقتَها في جَمْعِ رَحيقِ الأزْهارِ لتصْنَعَ منهُ العسَلَ، وَنقّارُ الخشبِ يقضي وَقتَهُ في نقرِ جذوعِ الأشْجارِ لبناءِ عُشِّهِ فكيفَ أقضي أنا وَقتي؟ سُؤالٌ حيرَّ سَعداً الزرزور.

***

اقتربَ الليلُ، وَبدأتْ الشمسُ بالمَغيبِ وَقد أحسَّ سَعدٌ الزرزورُ بالتعب الشديد فبَحثَ عن مَكانٍ لينامَ فيه. وبعدَ بحث وَجَدَ عُشّاً مَهجوراً، فتخَيّلَ أنَّ أمَّهُ قد ضَمَّتهُ وَقبّلتهُ قُبلة النومِ ثمَّ نامَ فيه.

استَيقظَ بعْد فترة على صُراخِ الحيوانات، سَمعَ أصْواتَ أقدامها وهيَ تهُزُّ الغابَةَ، رَأى السَّناجبَ تقفزُ حَولهُ من غُصْنٍ إلى آخرَ والطيورَ تطيرُ متخَبطة في الظلامِ.

خافَ جداً ولمْ يَعرفْ ما الأمرُ، نظرَ حَولهُ فرَأى سنجاباً صَغيراً يَرْتجفُ منَ الخَوف، فسَألهُ: مَاذا يَحدث؟ لمَاذا الكلُّ خَائف؟ أجَابَ السنجابُ: إنَّهُ الحَريقُ، لقدْ بَدأ حَريقٌ في طرَفِ الغابَةِ وَستعْمَلُ الرِّياحُ على نَشرهِ في كلِّ الغابة. خافَ سَعدٌ الزرزورُ جداً وَتمنَّى لوْ أنَّهُ في بَيتهِ مَعَ والديهِ وإخوَتهِ يَنعمُ بالأمن بَعيداً عَن الخطرِ.

طَارَ ولمْ يَعرفْ إلى أينَ يَذهبُ، إنَّهُ خائفٌ جدّاً، في أيِّ اتجاه يَهربُ؟ سَمعَ الفيلَ يَقولُ لابنهِ: أسرِعْ، أسرِعْ باتجاهِ البُحيرَةِ، فقرَّرَ أنْ يتبَعَهُما باتجاهِ البحيرةِ.

طارَ بأقصى سُرعة هُوَ وَالحيواناتُ، كلُّ الحيوانات كانتْ تركضُ مَعاً، الأسودُ مع الغزلان وَالنمورُ مع قطعان حُمر الوَحش تتبَعُها الفيَلَةُ الضَخمةُ ذاتُ الخراطيم الطويلة، كانتْ كلُّها تركضُ وَتصيحُ بصَوتٍ عَالٍ.

أمَّا الطيورُ فكانتْ تطيرُ مُتبعة الأصْوات؛ لأنها لا ترى ليلاً، القرودُ كانتْ تصيحُ وَتقفزُ من شَجَرة إلى أخرى وَهيَ تحملُ أطفالهَا على ظهْرها. لمْ تكنْ الحيواناتُ الضَعيفةُ خائفةً منَ الحيوانات المفترسَة بلْ منَ الخطرِ الأكبر وَهو النارُ التي اقتَربتْ أكثَر وأكثر.

كانَ سَعدٌ الزرزورُ يطيرُ أيضاً مَعهُم وَيسمَعُ أصْواتَهُمْ وَصرَخاتهمْ، وَلكنهُ دُهشَ عندَمَا سَمعَ الأسدَ يَزأرُ وَيقولُ: كمْ أكرهُ الإنسانَ، هوَ دائماً يُشعلُ النيرانَ... كمْ أكرهُ الإنسانَ الذي يُحرقُني ويُحرقُ أشبَالي.

في هَذه اللحْظة فهمَ سَعدٌ الزرزورُ أمراً لطالما شَغلَ بَالهُ وَاستَغرَبَ منهُ، وَهوَ ذلكَ المذيعُ في التلفازِ وَالذي كانَ دَائماً يَطلبُ منَ الناس عَدَمَ رَمي أعْواد الثقاب المُشتعلة في الغابَات. كانَ دائماً يَستَغربُ وَيتسَاءلُ كيفَ يُمكنُ لعُود الثقاب أنْ يُحرقَ الغابَةَ ؟ وَكانَ يضْحَكُ منَ المذيع خاصَّةً عندمَا يَطلبُ منَ الناس عَدَمَ إشعَال النار الصَّغيرة التي يَستخدمونَها لشيِّ اللحم في الغابات قريباً منَ الأشجَار، وَكانَ يقولُ: إنَّها نارٌ صَغيرةٌ كيفَ ستُشعلُ الغابَةَ ؟ لا بُدَّ أنْ المُذيعَ لا يُحبُّ اللحمَ المشويَّ لذلكَ ينصَحُ الناسَ بعَدم شيِّ اللحم ! هَذا مَا كانَ يفكّرُ بهِ سَعدٌ الزرزورُ في تلكَ الأيام.

أمّا الآنَ فقدْ فَهِمَ السَّببَ الحقيقيَّ، فالنارُ الصغيرةُ سرعانَ مَا تصْبحُ كبيرةً في الغاباتِ وَتنشرُها الرِّياحُ، خاصة عندَما تشبُّ في الأشجار الجَافَّة التي تشْتَعلُ بسُرعةٍ. أمُورٌ صَغيرةٌ يَغفُلُ عَنها الإنسانُ تكونُ نتيجَتُهَا سَيِّئَةً جداً.

ارتفعَتْ أصْواتُ الحيوانات فالتفتَ سَعدٌ الزرزورُ وَراءَهُ فرأى النيرانَ قدْ اقتربَتْ أكثرَ وَأكثرَ. اشتدَّ خَوفُهُ وَرُعْبُهُ، فنَظرَ أمَامَهُ فرَأى انعكاسَ صُورةِ القمرِ عَلى سَطحِ البُحيرةِ فأسْرَعَ معَ الحيواناتِ التي سَبقَتْهُ وَنزَلَتْ إلى المَاءِ. دُهشَ عندَما وَجدَ النارَ قدْ وقفَتْ عندَ حُدودِ البُحيرةِ! عندَها صَاحَ بسعادةٍ قائلاً:
صَحيحٌ... كيفَ لي أن أنسى... فالماءُ يُطفئُ النّارَ!

حَمِدَ سَعدٌ الزرزورُ رَبَّهُ كثيراً
على نَجاتِهِ والحيواناتِ منَ

النارِ ونظرَ إلى السَّماءِ فرَأى الدُّخانَ يتصَاعدُ إليها، ثمَّ سَمعَ أصْواتاً بعيدةً... توت... توت... إنَّها سَياراتُ الإطفاءِ، كمْ أحِبُّ رجَالَ الإطفاءِ الذين يُسَاعدونَ الناسَ في كلِّ الأوقاتِ؛ في الليلِ وَالنهارِ. لا شكَّ أنهمْ سَيُمضونَ الليلَ بكاملِه وَهُمْ يُطفئونَ النارَ التي أشعَلَها الناسُ بإهمَالِهم.

شُكراً لكمْ يا رِجَالَ

الإطفاءِ... قالها سَعدٌ الزرزورُ بصوتٍ عَالٍ علَّهمْ يَسْمَعُونَهُ.

وَجَدَ سَعدٌ الزرزورُ غصْنَ شجَرة على الجَانب الآخرَ منَ البُحيرة الذي لم تصلْهُ النارُ، فوَقفَ فوقَهُ ليَرْتاحَ حيثُ كانَ يَشعُرُ بالتعب وَالخوف، وكمْ تمنَّى في تلكَ اللحظة أنْ يَرتميَ في أحْضان أمِّه الحبيبة، فهَمسَ قائلاً: كمْ اشتقتُ إليكِ يا أمِّي، ثمَّ غفا فوقَ الغُصْن.

***

اسْتيقظَ سَعدٌ الزرزورُ على دفْءِ أشعّة الشمس التي بَدأتْ بالشروق، وَرأى انعكاسَ الشمس على سَطح الماءِ في البحيرة، كانَ المنظرُ جميلاً جدّاً ممّا جعلَهُ يَشعرُ بالنشاط. تأمّلَ الماءَ بُحبٍّ كبير، فقدْ كانَ السببَ في وقفِ الحريق وعَدَم امتداده أكثر، خاطبَ الماءَ قائلاً: هلْ تدري يا عزيزي المَاءَ كمْ كنتُ أجْهلُ قيمتَكَ؟

وَكمْ دُهشَ سَعدٌ الزرزورُ عندمَا سَمعَ صَوتاً يَقولُ: كيف؟

فأجَابَ: لمْ أكنْ أعرفُ أهميّتَكَ لأنّكَ دائماً موجودٌ وَلمْ أفكّرْ يوماً مَاذا كانَ سَيحدثُ لوْ غبتَ عنّا؟

ثمَّ تابعَ سَعدٌ الزرزورُ كلامَهُ قائلاً: كانت المُعلّمةُ دَائماً تنبهُنا إلى عَدم تركِ الماءِ مَفتوحاً بَعدَ غَسلِ أيدينا، وَكنتُ أستغربُ من إعادَتها لهذا الكلام في كلِّ وَقت، وَصرْنا عندمَا تبْدأ المُعلمةُ في النصيحَة نكملُ عنها الكلامَ لأننا حَفظْناهُ عَنْ ظهر قلب! صَحيحٌ حَفظْناهُ... وَلكنّنا للأسَفِ لمْ نفهمْهُ وَهَذا هوَ الأهمُّ.

رَدَّ الماءُ: مَا أجملَ كلامَكَ... تابعْ أرْجوك.

تشجَعَ سَعدٌ الزرزورُ فنادراً مَا يَجدُ أحَداً يُشجّعُهُ على إبداءِ رَأيه وَعلى التحدُّث بحُرّية، فقال: بالأمس اعتقدتُ أنني سَأموتُ وَخفتُ كثيراً على نفسي وَعلى الحَيوانات المسكينة، وَكنتَ أنتَ بالنسبة إلينا حَبلَ النَّجاة الذي تمسَكْنا به. وَهَذا جعلني أفكّرُ في أهميّة وُجودكَ وَتمنيتُ لو أنَّ مُعلمتي هُنا لأخبرَها بأنني أخيرًا فهمتُ مَعنى كلامها، فبدونكَ لا توجَدُ حَياة، فالناسُ وَالحيواناتُ والطيورُ وَالنباتاتُ يَجبُ أنْ تحصُلَ عَلى المَاءِ لتعيشَ، فالإنسانُ مَثلاً يَحتاجُ إلى أنْ يَشربكَ حَتى يَعيشَ لأنَّ مُعظمَ جسمه منكَ أنتَ أيُّها المَاءُ.

فكّر سعدٌ الزرزورُ قليلاً ثمّ أكمَلَ قولَه: ولنْ تستطيعَ الكائناتُ الحَيَّةُ تبريدَ أجسَامهَا في فصْل الصَّيف ممَّا يُعرّضُها للخطرِ الشديد. أيضاً، المصانعُ لن تستطيعَ العملَ لأنَّها تحْتاجُ إلى الماءِ سَواءً في الصّناعَة أو تبريد مُحرّكات الآلات التي تسْتخدمُها. ولا ننسى أنَّ شلالاتِ المَاءِ تديرُ المُحركاتِ المُسْتخدمَةَ في توليد الكهرباء، وَطبعاً لنْ أنسى فضلَكَ في إطفاءِ الحَرائق.

ثم داعبَ الماءَ قائلاً: بدونكَ لنْ يَستطيعَ الناسُ الاستحْمامَ، وَلا غسلَ الثياب... فتخيَّلْ كيفَ سَيكونُ الوَضعُ؟

رَدَّ الماءُ: أستطيعُ شمَّ الرَّائحةِ من

هنا... ها... ها.

باختصار يا عزيزيَ الماءَ أنت نعمَةٌ من نعَم اللّه تعالى علينا نحنُ الكائناتِ الحيّةَ، وَيجبُ عَلينا أنْ نشكرَ اللّه تعالى دائماً وَندعوهُ أنْ يُديمَكَ علينا... قال سعْد الزرزور.

شكراً.. شكراً.. قالَ الماءُ بخجلٍ، لكنّني أنقصُ دائماً ولا أزيدُ!

قال سعدٌ الزرزور: لقدْ سمعتُ هَذه العبارةَ من قبلُ! ثمَّ تساءلَ: مَتى؟ متى؟ وَفجْأةً صَاحَ قائلاً: نعمْ... نعمْ... إنَّها المدْرَسَةُ مَرة أخرى، فقدْ قالتْ لنا مُعلمة العلوم: الماءُ أمانةٌ في أعناقِ الناس وَهوَ ينقصُ لأنَّ أعْدادَ الناس تزيدُ وَلا توجَدُ مَصادرُ جَديدةٌ للمَاءِ كيْ تكفيَ حَاجَتَهُمْ منَ الشُّربِ وَالاستخدام في المُستقبلِ، لذلك لابدَّ من أن تتحملوا مسئولية الحفاظ على الماءِ منذُ الآنَ يا أطفالي الأعزاءَ.

استغرَبَ الماءُ وَسَألَ سَعداً الزرزورَ: تحافظونَ عليَّ... كيف؟!

أوْضحَ سَعدٌ الزرزورُ قائلاً: هذا ما سألْنَا عنه معلّمَتنَا والتي لم تُجبْنَا في وقتها بلْ طلبتْ منّا أنْ لا نغلقَ صنبورَ الماءِ (الحنفية) بالكاملِ وأن نجعلَه ينزلُ قطرة قطرة من

الماءِ لمدة ساعة وأن نجمعَ هذه القطرات في وعاءٍ ثم نحضرُهُ في اليوم التالي للمدرسة. ضحكنا جميعاً لأننا توقّعْنا أن نُحضر ملءَ ملعقة من الماء.

قاطعَهُ الماءُ قائلاً: أكملْ بسرعة، ماذا حدث؟

كم كانت دهْشَتُنا كبيرةً عندما جمعَ كلٌّ منّا ملءَ كوبٍ كبيرٍ من هذه القطرات القليلة، وعندها قالتْ المعلمةُ: هذا حالُ الماءِ في الكرة الأرضيّة إذا حافظَ كلٌ منّا على كوبٍ واحدٍ من الماءِ فإنَّ مليارات من الأكوابِ بعددِ الناسِ ستُحفَظُ من الضياع.

استغربَ الماءُ من معلومات سعدِ الزرزور فسأله: أخبِرْني كيفَ عرفتَ كلَّ ذلكَ... وهل صحيحٌ أن الزرزورَ يذهبُ إلى المدرسة؟!

أجابَهُ سَعدٌ الزرزورُ: أنا لستُ زرزورًا حَقيقيّاً.

قالَ سَعدٌ الزرزورُ في نفسه: مَهمَا بَدا الأمرُ غَريباً فلنْ أقولَ إلا الصِّدقَ. وَشعرَ بُحبٍّ وَامتنانٍ كبيرٍ لمَدرَستهِ وَمُعلّماتِه، وبشوقٍ شديدٍ لعائلتِه.

ثم قال للماء: أتدري يا ماء، لمْ أكنْ أشعُرُ بقيمةِ ما حَولي عِندَما

كنتُ طفلاً حَقيقياً، كنتُ أتضَايقُ منْ محبَّة وَالدَيَّ لي وَأعتبرُها تدَخُّلاً في حياتي وَتحكّماً. كنتُ أكرَهُ المَدرَسةَ وَأعْتبرُ أيامَ الإجَازةِ هيَ أيامي المفضَلة، وَلمْ أدركْ قيمَتَها إلا في هَذه الفترة عندَما اسْتفدتُ من الأشياء التي تعَلّمْتُها. لَم أشعُرْ بمَعنى العَائلَة إلا عندَمَا افتَقدتُها، ففي أوقاتِ الخَطر لَم أكنْ أريدُ سُوى أنْ أحْتميَ بأبي، وَأرتميَ في أحضَانِ أمّي. اشتَقتُ لإخوتي وَأصْدقائي، أريدُ أنْ أعودَ إليهم... وَبَدأ سَعدٌ الزرزورُ في البكاءِ.

***

حَبيبي سَعد، قمْ، باسم اللّه عَليك... لا تخفْ يا حَبيبي، أنا أمُّكَ... كانتْ هَذه هي كلماتُ أمّ سَعد التي توقظُ بها سَعدًا بَعدَمَا أفاقتْ على صَوتِه وَهوَ يَبكي. كانتْ توقظُهُ برفقٍ وَحَنانِ الأمّ.

فتحَ سَعدٌ عَيْنَيْه ببُطءٍ، غَيرَ مُصَدّقٍ مَا يراهُ، إنَّها أمّهُ الحَبيبة، صَاحَ قائلاً: أمّي، أمّي، أينَ كنتِ؟ آه لوْ تدرينَ كمْ اشتَقتُ إليكِ يا أمّي. وَظلَّ يُقبّلُها وَيضُمُّها وَالدموعُ تملأ عَينيْه منَ البكاءِ، ثمَّ قالَ لها: لقدْ كنتُ ضَائعاً من دونكم، كنتُ أشعرُ بالخَوفِ وَالوحْدةِ، أحبُّكم جَميعاً يا أمّي الغَاليةَ.

استغرَبَتْ أمُّ سعد من كلام ابنها، لكنَّها لَم تقلْ شيئاً، وَلَم تَشأْ أنْ تسْألَهُ حَتى لا يَزدادَ بكاؤهُ

أكثرَ من ذلكَ، وَضمَّتهُ بحَنانٍ وَحُبٍّ إلى صَدرها إلى أنْ هَدأتْ نفسُهُ وَاطمَأنَّ قلبُهُ، ثمَّ قالتْ: هيَّا يا سَعد لقدْ أذَّنَ المُؤذِّنُ لصَلاةِ الفجْرِ وَاقتَربَ مَوْعدُ الذَّهاب إلى المَدرسَة، فقُمْ يا حَبيبي لتغسلَ وَجْهَكَ وَتتوَضأ للصَّلاةِ وَمنْ ثُمَّ تسْتعدُّ للذهابِ إلى المَدرسَة.

وَهُنَا زَادَ اسْتغرابُ أمِّ سَعد أكثر عندَمَا لمْ تسْمَعْ أيَّ اعتراضٍ منْ سَعد كعَادته كلَّ صَباحٍ بَلْ قامَ نشيطاً وَذهبَ ليتوَضأ.

فتحَ سَعدٌ صُنبورَ المَاءِ ليتوَضأ وَحرصَ على ألا تضيعَ نقطَةٌ منَ المَاءِ الغالي، بَعدَها ذهبَ ليُصَلِّيَ وَدعَا رَبَّهُ أنْ يَحفظَ وَالديْه وَإخوَتَهُ وَأنْ يَنفعَهُ بالعلْم وَيَحفظَ عَليه نعَمَهُ الكثيرةَ لا سيَّما نعْمَةَ العَقل، وَأنْ يُديمَ على الإنسَانِ نعْمَتَي المَاءِ وَالصِّحَّة... دَعَا سَعدٌ رَبَّهُ وَأطَالَ في الدُّعاء، بَعْدَها اسْتعَدَّ سَعدٌ للمَدرسَة وَبَدا في غَاية النَّشاط. كانتْ أمُّهُ غَيرَ مُصَدِّقة لهذا التغيير الذي حَدَثَ وَلكنَّها كانتْ أيضاً في قمَّة السَّعَادَة لأنَّ ابنَهَا قد تغيَّرَ للأحْسَن.

وَدَّعَ سَعدٌ أمَّهُ وَهوَ ذاهبٌ للمَدرسَة ثمَّ قبَّلَ يَدهَا. نَظرَتْ أمُّ سَعد في عَيْنَي وَلدِها الصَّغير لتجِدَ ابتسامَةً سَاحِرةً مُعَبِّرَةً لمْ تعرِفْ سِرَّها حتى الآن.

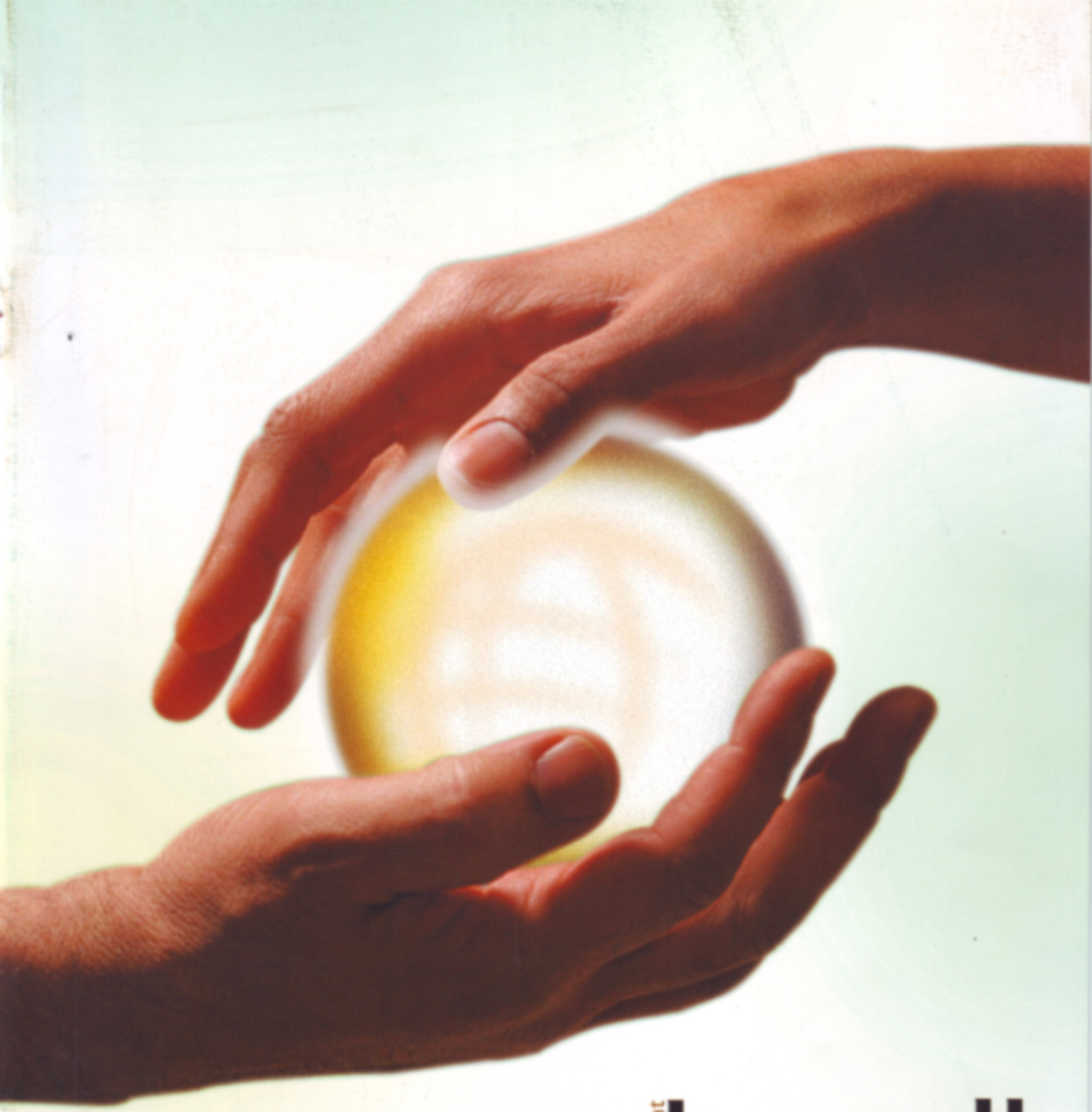

الوسط
Alwasat
يومية سياسية مستقلة

كلمة طيبة في أرض طيبة...